القيمة الاجتماعية للقمح في الريف السوري:

"دراسة ميدانية على بعض قرى محافظات درعا وحمص وطرطوس"

بحث من إعداد

أ.د / أديب عقيل لما إبراهيم أيوب

قسم علم الاجتماع

جامعة دمشق – سوريا

القيمة الاجتماعية للقمح في الريف السوري:
دراسة ميدانية على بعض قرى محافظات درعا وحمص وطرطوس

إنّا نحبُّ الوردَ
لكنّا نحبُّ القمحَ أكثرْ
ونحب عطر الورد'
لكن السنابل منه أطهرْ
(محمود درويش)

- الملخص

يساعد البحث الراهن القارئ على التعرف على صورة غائبة للقمح وهي قيمته الاجتماعية التي تلعب دوراً مهماً في حياة الفلاحين وأسرهم، فالبحث لم يتطرق الى دور القمح الاقتصادي والغذائي كما هو مألوف في العديد من الدراسات الأخرى، إنما سعى لتوضيح جملة من الوظائف الاجتماعية التي يؤديها القمح في القرى الريفية المهتمة بزراعة القمح. وتوصلت الباحثة، التي اعتمدت على طريقة الملاحظة بالمشاركة وتدوين النتائج بشكل مباشر، الى عدد من الوظائف الاجتماعية للقمح وهي الوظيفة النفسية للقمح، ووظيفته في نشر روح التعاون والعمل الجماعي، بالإضافة الى أهميته في تعزيز دور المرأة. كما تم استنتاج وظيفة القمح في حل المشكلات الاجتماعية، ووظيفته الثقافية في التعرف على عادات وتقاليد القرى أثناء فترة الحصاد، كما نجح القمح بربط قيمتين بوظيفة وهي الوظيفة الاقتصادية–الاجتماعية. هذا ما توصلت اليه الباحثة أثناء فترة إجراء البحث المتزامنة مع فترة حصاد القمح.

Abstract: The current research helps to identify a missing image of wheat, its social value, which plays an important role in the lives of farmers. It does not address, as is familiar, the economic, nutritional and agricultural role of wheat, but seeks to clarify some social functions performed by wheat in rural villages which are famous for planting it. The researcher who used the method of observing participation stresses a number of functions of wheat such as the Social, Psychological functions as well as its function in spreading the spirit of cooperation and teamwork, In addition to this, reference is made to the enhancing the role of woman, and its role in solving the social problems, also the cultural function in the identification of customs and traditions. Wheat, as a main important crop, links two values in one function which can be termed a socio-economic function. These functions and values have been observed by the researcher during the period of research coinciding with wheat harvest.

- مقدمة:

يعلم البشر عن القمح أكثر مما يعرفونه عن أسمائهم؛ لأهميته الاستراتيجية في الغذاء على مستوى العالم، فهو صديق الفقير قبل الغني. إنه خير السماء للأرض، فكما ينتظر الفلاح مواسم الخير ليجني محصوله الذهبي، تعلمنا في المدراس والجامعات أن القمح هو أساس عيشنا، ما من دولة أو مؤسسة أو منظمة معينة إلا وعملت على إنتاجه ودرست مردوده واحتياجاته،[١] فهو حماية الشعوب وحب الأرض للبشر، له الدور الأكبر في استمرارية الحياة، فهو يحمل داخل سنابله حاجة الفقير والغني، يحصد الفلاح محصوله وكأنه يحصد معه السلام، وهو عامل جمع بين أهل الكرة الأرضية.

تقدم الكثير من الدراسات والأبحاث التي تُعنى بمحصول القمح أهميته الاقتصادية المرتفعة، وقيمته الغذائية التي لا غنى عنها، وتزخر المكتبة العربية بأماكن زراعته ومساحاته الشاسعة، ونسبة مردوده وأنواعه، كما تركز بعض المنظمات على استنباط أصناف جديدة منه عالية الجودة والتحمل.[٢] لكن تفتقر المكتبات- ربما بسبب التركيز على تأمينه والاستفادة منه – إلى الدراسات التي تتحدث عن أهمية القمح الاجتماعية، وهذا ما دعا الباحثة إلى توجيه الأنظار الى هذه القيمة، وما يؤديه من وظائف اجتماعية لا بد من الإشارة اليها؛ فهي تزيد على ضرورته ضرورة وعلى أهميته المزيد من الأهمية، ليصبح بذلك– أي القمح- منظومة بذاته تدعم المجتمعات كالنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية داخل كل مجتمع.

- مشكلة البحث:

يؤدي القمح دوراً اجتماعياً جديراً بالبحث، فهو يمر بمراحل عدة من الزراعة الى الري الى الحصاد ثم الاستخدام او التسويق، وكل مرحلة من هذه المراحل تلعب دوراً اجتماعياً في حياة الفلاحين وأسرهم. وتنطلق مشكلة البحث من فهم القيمة الاجتماعية والوظيفة الاجتماعية للقمح.

---

[١] يوجد في القطر العربي السوري العديد من المنظمات المحلية والدولية التي تعنى بالقمح كمنظمة الهلال الأحمر السوري، والمنظمة العالمية للأغذية الفاو بالإضافة لعملها، لكن هناك المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة أكساد، منظمة عربية مقرها سورية يعتبر بيت الخبرة العربي في استنباط أصناف من القمح القاسي والطري. (أكساد، ٢٠١٨).

[٢] تأتي أهمية القمح كونه الغذاء الأساسي لكثير من شعوب العالم إذ يستخدم مادة أولية في العديد من الصناعات الغذائية بالإضافة إلى استخدامه في المجالات الصناعية (عبد الحميد وديب، ٢٠١٣). ويحتل القطر العربي السوري المرتبة الثالثة على مستوى الوطن العربي اذ المساحة المزروعة (١٤٣٧٣٧٥) هكتاراً، وبلغ الإنتاج قرابة (٣٧٠١٧٨٤) طناً، ومتوسط الإنتاجية (٢٥٧٥) كغ. (المجموعة الإحصائية الزراعية، ٢٠١٠).

- هدف البحث:

التعرف على الوظائف الاجتماعية التي يؤديها محصول القمح.

- مواد البحث وطرائقه:

الطريقة البحثية: سيعتمد البحث على منهج دراسة الحالة

المجال المكاني: تمت دراسة بعض قرى الريف السوري وهي (منطقة ازرع في محافظة درعا، قرية خربة التين في محافظة حمص، قرية حريصون في محافظة طرطوس).[١]

المجال البشري: الفلاحون في قرية

المجال الزماني: تم البحث اثناء فترة حصاد القمح، من: ١ حتى ٦/٣٠/ ٢٠١٩م

أدوات البحث: اعتمد البحث على الملاحظة بالمشاركة حيث قامت الباحثة بمشاركة الفلاحين والعيش معهم أثناء فترة حصاد القمح.

- النتائج والمناقشة:

بعد الانتهاء من موسم الحصاد في القرى المذكورة توصل البحث- من خلال معايشة المشكلة- الى عدد من النتائج التي تتصدى لهدف البحث بالتعرف على القيمة الاجتماعية للقمح وهي كالتالي:

- وظيفة القمح النفسية

يبدأ موسم الحصاد في الشهر السادس / حزيران، لكن الملفت للنظر في هذه المرحلة الجو العام للقرية الذي يسوده عندئذٍ الفرح والشعور بالطمأنينة والراحة، فما من فلاح وعائلته إلا وتلاحظ بينهم علائم الحب والراحة النفسية بسبب بدء موسم الحصاد وأنهم سيجنوا ما زرعوه خلال شهور السنة السابقة. ونستنتج من ذلك دور القمح ووظيفته النفسية التي تنعكس على أفراد العائلة مما يجعلهم في حالة من النشوة والرضا غير مبالين بالتعب والارهاق، فالقمح هنا كما نرى يلعب دوراً أساسياً في الحفاظ على الحالة النفسية الإيجابية بين أفراد

[١] تم اختيار قرية ازرع كونها قرية في محافظة درعا التي تمثل الجنوب السوري، وقرية خربة التين كونها قرية في محافظة حمص التي تمثل الوسط السوري، وقرية حريصون في محافظة طرطوس تمثل الساحل السوري، فهي نماذج تمثل القطر العربي السوري ككل.

الأسرة الواحدة وبين الأسر الأخرى، مما يعزز واقعاً اجتماعياً نفسياً يساعد على بناء مجتمع ريفي منسجم متفائل.[١]

- وظيفة القمح في تعزيز روح التعاون:

بعد الشعور النفسي العام الذي يسبق موسم الحصاد، يبدأ الفلاحون في جني ثمار تعبهم بروح التعاون والعمل الجماعي، فتجد أن جميع افراد الأسرة في الحقل يعملون بجد وشغف، كما يمكن أن ترى أفرادًا من الأسر الأخرى بالقرية يساعدون أصحاب الحقل في جني المحصول، مما يدل على أهمية القمح في تمكين وظيفة العمل الجماعيّ، وروح التعاون، وخلق روح الألفة والمحبة.[٢]

- وظيفة القمح في تعزيز دور المرأة:

أثناء فترة حصاد القمح تلعب المرأة دوراً هاماً في جني المحصول فهي، بالإضافة الى دورها جانب الرجل، قد تقوم بهذا الدور لوحدها بسبب غياب الرجل أحياناً.[٣] فإحدى المشاهدات التي تدل على ذلك سيدة تدعى أم سومر من القرية لها ولدان خارج القطر قررا الاستعانة بعمال لجني المحصول لكنها رفضت وقالت: "إن الأرض لن تعطي بسخاء إذا لم يخدمها أبناؤها." فهذه المرأة الكبيرة تشعر بدورها وخدمتها اثناء فترة جني المحصول ولا تقبل الا أن تجنيه بنفسها- على الرغم من وضعهم الاقتصادي الجيد- كما أن هناك الكثير من النساء اللواتي تتشابه قصصهنّ مع قصة أم سومر، فالمرأة بالريف تشعر بأهميتها ودورها الفعال خصوصاً اثناء فترة جني القمح،[٤] ونستنتج مما سبق أن القمح مهم في حياة المرأة الريفية فهو يسهم في تعزيز دورها وشعورها بأنها هنا على قيد الحياة تقوم بدور فاعل في مجتمعها.

---

[١] من خلال الملاحظة بالمشاركة تمت ملاحظة تغيير مشاعر الافراد أثناء فترة الحصاد. ومن المؤكد أنه لا يمكن قياس المشاعر مادياً لكن اتضح ذلك من خلال تغيير سلوك الأفراد وطريقة التفاعل مع الأمور فقد ظهرت الليونة على اتخاذ القرار بدلاً من التشدد، وانخفض مستوى الغضب من المشاكل مما يعزز فكرة الوظيفة النفسية التي يؤديها القمح.

[٢] ولابد من ملاحظة التعاون بين أفراد القرية أثناء فترة الحصاد، ومما دل على ذلك السؤال: هل تعمل لوحدك أثناء فترة الحصاد؟ فكان جواب الفلاحون بنسبة ٩٩٪ بالنفي، مما يعطي النتيجة السابقة دور القمح في تعزيز التعاون.

[٣] تم إحصاء عدد المنازل من غير معيل (ذكر) فكانت نسبتها في قرية ازرع ٤١٪، وفي قرية خربة التين ٤٩٪، وفي قرية حريصون ٥٨٪.

[٤] عند سؤال النساء الريفيات هل تشعرين أن لك دورًا كمرأة في العمل؟ كانت النتيجة أن ٧٦٪ من النساء تشعر بدورها وقت حصاد القمح فقط كونه المحصول الوحيد الذي تزرعه أولاً، وأن باقي أعمال المنزل التي تقوم بها لا تعتبره دوراً بل هو واجب عليها.

- وظيفة القمح في حل الخلافات الاجتماعية:

أثناء فترة الحصاد ترى البعض قد نسي خلافه مع الفلاح الذي بدأ في جني محصوله وأخذ في مساعدته؛ فإحدى القصص التي عاشتها الباحثة أثناء تلك الفترة تتمثل في أنَّ أحد الافراد كان قد أقرض بعض المال لصاحب الحقل وكان هذا الأخير غير قادر على رده، ونشبت بعض المشاحنات بينهم. ولكن عندما بدأ موسم الحصاد كان صاحب المال قد نسي الشجار بينهم وأتى لمساعدة جاره في جني محصوله وبدأت بينهم علاقة جديدة يسودها التفاهم.[١] كما يمكن أن تُحَلّ بعض الخلافات بين أفراد الأسرة الواحدة أثناء فترة العمل كالأب الذي ينسى أخطاء أبنائه ويبدأ معهم صفحة جديدة تعبر عن حبه لهم، وإحدى القصص (أن ابن الفلاح كان قد خالف رأي والده في التسجيل في الكلية حيث إن الأب يريد كلية الزراعة والطالب يريد الأدب العربي وفعل ما أحبه، وبدأت قصة الزعل بين الأب والإبن. وأثناء تلك الفترة حل موعد حصاد القمح فنزل الأب والإبن الى الحقل مع بعضهم مع قول الأب للإبن هذا القمح هو من شفع لك). ونستنتج أن القمح أحد أهم الوسائل التي تساهم في حل الخلافات الاجتماعية في الريف.

- وظيفة القمح الثقافية:

أثناء فترة الحصاد يمكّن ذلك بكل يسر وسهولة من التعرف على واقع القرية الثقافي حيث يقوم الأهالي والأفراد بنصب بيوت الشعر والخيم، ويقيمون بها الحفلات ومظاهر الرقص والدبكة وولائم الطعام. وأثناء وجودك معهم تسمع أحاديثهم وسمرهم التي تعرفك على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، ومن تلك الأحاديث التي تدل على قيمة القمح وتعرف بها في العادات والتقاليد (إحدى النساء كانت تسأل أخرى كم ستوزعين قمحًا على روح الشهيد- الذي هو ابنها- فقالت الأخيرة سأوزع عشرة كيلوجرامات، فقالت السائلة الله يتقبل منك ويحشره مع الصالحين). هذا الحديث هو دليل على أهمية القمح في احياء العادات والتقاليد المتوارثة.

وفي إحدى الليالي أقاموا حفلة زفاف لشاب وفتاة من القرية وقامت أم الشاب برمي حبات القمح على العروسين. وعندما سألت الباحثة ما سبب ذلك قالت الأم (لا أدري فإن اجدادنا من قديم الزمن يفعلون ذلك فهي عادات، ولكن

---

[١] من خلال الملاحظة اثناء فترة معايشة الحالة تم التوصل إلى النتيجة السابقة لكثرة تكرار مثل تلك الحالات. ولم تتمكن الباحثة من التحديد هل حل الخلاف كان لأسباب مادية ام لأسباب معنوية. فقد امتنع الفلاحون عن الجواب إن كان يساعده لأنه سيعيد اليه المال بعد الحصاد.

الأب أوضح سبب ذلك قائلاً: إن القمح هو رمز للخصوبة وعندما نرميه على الزوجين فنحن بذلك نتمنى لهم حياة خصبة مليئة بالأطفال فهذا أمر ضروري في الريف).[١] وأيضاً هذه إحدى العادات والتقاليد المقدسة التي تدل على أهمية القمح في الريف.

كما أن الثقافة يمكن التعرف عليها من خلال التواجد في الحقل ففي الصباح الباكر تجتمع الاسر وهم يغنون أغاني شعبية ومثال ذلك (طل الصبح ولك علوش، سبقونا هالحصّادة، هات المنجيل والمنكوش، ولحقني بالزوادة)، تعتبر فترة حصاد القمح فترة مهمة لإحياء التراث الشعبي في القرية والتعرف عليها.

- وظيفة القمح الاقتصادية-الاجتماعية:

لا شك بأنه لا أحد لا يعلم قيمة القمح وظيفته الاقتصادية لكن هناك وظائف اجتماعية مرتبطة بالاقتصادية يمكن تسميتها بالوظيفة الاقتصادية-الاجتماعية ومنها: أن إحدى الأسر كانت قد أجلت زفاف أبنائها لبعد موسم الحصاد لأنه يوفر التمويل اللازم فهنا ارتبطت الوظيفة الاجتماعية بالاقتصادية، حيث الزفاف هو صورة من صور تكوين نواة جديدة للمجتمع. كما توجد إحدى الاسر التي ربطت زيارة أقربائها في العاصمة بموسم الحصاد. وأيضاً هنا يوجد اقتران بين الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية للقمح فالزيارات العائلية تعتبر أحد أهم جوانب العلاقات الاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع ككل. ودليل آخر على ذلك أن الافراد الذين يتعلمون في الجامعات يؤجلون شراء حاجياتهم الجامعية من أدوات وكتب وغيرها لحين موسم حصاد القمح. وهذا يعد ايضاً ارتباطاً بين الوظيفة الاجتماعية (التعلم) مع الوظيفة الاقتصادية (التمويل) للقمح.

ومن هذه الناحية يعتبر القمح أمرًا ضروريًّا لتنفيذ الوظائف الاجتماعية المرتبطة بوظيفته الاقتصادية، وهذا مؤشر آخر على أهمية القيمة الاجتماعية للقمح.

---

[١] يعتبر رمي القمح على العرسان عادة اجتماعية متوارثة منذ القدم فهي ترمز الى الخصوبة مما يدل على أهميتها وترجع أصل هذه العادة الى القرن السادس عشر في بريطانيا في عهد الملكة اليزابيت الأولى وعندما أصبح القمح غالياً تم استبداله بالأرز. (مجلة التراث الشعبي، ٢٠١١)

- الخاتمة:

يحمل القمح ضمناً الكثير من الوظائف الاجتماعية التي تزيد من أهميته الاقتصادية والغذائية فبالإضافة الى اعتباره المحصول الاستراتيجي الاقتصادي أولاً بسبب دوره الأساسي في سد الفجوة الغذائية، يمكن اعتباره أيضاً من ناحية أخرى المحصول الاجتماعي الذي يسهم في تعزيز روابط الاتصال بين الأسر والجماعات، وتوثيق العلاقات الاجتماعية بين الافراد مما ينعكس إيجاباً على القرى والريف الذي يهتم بالقمح، فمفهوم القمح مرتبط بشكل وثيق بالاقتصاد والزراعة ولكنه يتعدى ذلك أيضًا ليصبح رمزاً اجتماعياً ثقافياً.

- قائمة مراجع مختارة:

١- أكساد، كتيب التعريف بالمركز العربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة، أكساد، ٢٠١٨.
٢- عبد الحميد، عماد، وعلي ديب، طارق، إنتاج محاصيل الحبوب وتكنولوجيتها، منشورات جامعة تشرين، ٢٠١٣.
٣- مجلة التراث الشعبي، مجلة فصلية تصدر عن الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة، ٢٠١١.
٤- المجموعة الإحصائية الزراعية السنوية، وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي الجمهورية العربية السورية، ٢٠١٠.